(٨)

القرآن الكريم منهاج للفرد[١]

الحمد لله أنزل علي عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيّما لينذر بأسا شديدا من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا..

أحمده سبحانه وأتوب إليه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أدّي الأمانة وبلّغ الرسالة، ونصح للأمة، وتركنا علي «المحجة[٢] البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[٣]. «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا: كتاب الله وسنتي»[٤] ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما - ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا.

صلوات الله وسلامه عليه، وعلي آله وأصحابه ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٧].

أما بعد فيا معشر المسلمين:

إن الله جلّت قدرته قد اختصنا بكتاب كريم، وبدستور عظيم، ذلك هو القرآن الكريم. خير كتاب أنزله الله علي خير نبي أرسله الله لخير أمة أخرجت

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في ١٨ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ الموافق ٢٥ ديسمبر ١٩٥٣م.

(٢) المحجة: جادة الطريق.

(٣) رواه أحمد (١٧١٤٢) عن العرباض بن سارية، ونصه «قد تركتم علي المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك..» وقال مخرجو المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد حسن، ورواه الحاكم (١/ ٩٦) وابن ماجه (٤٣).

(٤) رواه مسلم في الحج رقم (١٣٣٥) عن الفضل.

للناس.. وإننا حينما نسمع المتحدثين عن الدستور والتشريعات والقوانين يجب أن نتحدث عن القرآن الذي لم تضعه لجنة، ولم تؤلفه جماعة من الناس. وإنما أنزله الله رب العالمين ﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ..** ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

القرآن الكريم منهاج للفرد :[١]

منهاج للفرد: يضع له أُسس حياته، وينير الطريق أمامه، ويأخذ بيده إلي الله رب العالمين ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾ [النساء: ١٧٤] ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** ﴾ [المائدة: ١٦].

النور المبين الذي يأخذ بيد المسلم إلي الجنة، ويهديه إلي الله إنما هو: القرآن الكريم. وصدق رسول الله إذ يقول: «القرآن شافع مشفع، وماحل[٢] مصدق، من جعله أمامه قاده إلي الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلي النار»[٣].

ذلكم هو القرآن الكريم، في حفظه رحمة، وفي تلاوته نعمة، وفي اتباعه بركة، والتجَمُّع عليه سكينة، وصدق رسول الله إذ يقول: «وما اجتمع قوم في

---

(١) لفضيلة الشيخ القرضاوي إسهامات متعددة في خدمة القرآن الكريم منها: ثقافة الداعية، تفسير سورة الرعد، المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، وكذلك بعض الخطب، وقد جمع الأخ د. خالد السعد في الجزء الثاني من خطب الشيخ القرضاوي اثنتي عشرة خطبة تناول شيخنا فيها (صفات عباد الرحمن) كما جاءت في سورة الفرقان، ولعل أهم كتب الشيخ خدمة للقرآن هو: كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ وهو كتاب صاغه الشيخ بطريقة منهجية ليكون مرافقاً لتوأمه: كيف نتعامل مع السنة؟ وقد قسم الشيخ كتابه «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» إلي أربعة أبواب رئيسة:

الباب الأول: خصائص القرآن ومقاصده.

الباب الثاني: التعامل مع القرآن حفظاً وتلاوة وسماعاً.

الباب الثالث: التعامل مع القرآن فهماً وتفسيراً. مع الكشف عن المزالق والمحاذير.

الباب الرابع: التعامل مع القرآن اتباعاً وعملاً ودعوة.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن أحد الباحثين اليمنيين قد حصل علي رسالة الدكتوراة في «منهج يوسف القرضاوي في التفسير وعلوم القرآن - دراسة في النظرية والتطبيق». وكان هذا في عام (٢٠٠٤م) من كلية الآداب جامعة أسيوط بمصر.

(٢) ماحل: أي ساعٍ.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٣٢) وابن أبي شيبة (٦/ ١٣١) عن ابن مسعود، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠١٩).

بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

القرآن يعلم الفرد المسلم عقيدته:

أول ما يُعنى القرآن: أن يعلّم الفرد المسلم: عقيدته التي يدين بها ، ويلقى الله عليها يعلمه الإيمان بوجود الله تعالى، ويقيم البراهين على ذلك من فطرة الإنسان ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾

[الروم: ٣٠]

ومن مظاهر الكون علويه وسفليه، جماداته ونباتاته، وحيوان وإنسان: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [ق: ٦، ٧]، ﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾

[الذاريات: ٢٠، ٢١]

والإيمان بصفاته العليا، وأسمائه الحسنى ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ [الحديد: ٣ -٦].

والتركيز على (٢) توحيد الخالق، بل لا بد من إثبات توحيد الإلهية، فقد كانت مشركو العرب إذا سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ يقولوا: « خلقهن

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.

(٢) توحيده تعالي، فلا خالق غيره، ولا رب سواه، ولا معبود إلا هو، فلا يكفي إثبات .

الله» ومع هذا كانوا يشركون بالله، ويعبدون الأصنام، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى! ومن هنا كان تركيز القرآن على الدعوة إلى عبادة الله وحده، فهى الغاية من خلق الإنسان ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولا غرو أن كثرت الآيات الآمرة بالصلاة والزكاة والصيام والحج، وغيرها من العبادات الظاهرة والباطنة.

ويعلم القرآن المسلم كذلك: أن وراء هذه الحياة الدنيا، حياة أخري، توفّي فيها كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت، ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وأن هذه الحياة القصيرة التى نعيشها إنما هي مزرعة للحياة الباقية الدائمة، فنحن نزرع هنا لنحصد هناك، يوم تنشر الدواوين، وتنصب الموازين، ويبعث الناس ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أقام القرآن الأدلة الناصعة علي إمكان البعث الذي استبعده المشركون، وقالوا: ﴿ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴾ [ق: ٣] وبيّن لهم أن الذى خلقهم أول مرة قادر علي أن يعيدهم كما بدأهم، وهو أهون عليه.

وبين القرآن الكريم بوضوح: أن من العبث المنكر، والباطل المرفوض: أن ينتهى العالم وتنفض سوقه، ولا يُجزي المحسن بإحسانه، ولا المسيء بسيئته، فأين عدل الله؟ وأين حكمة الله؟ يقول تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾

[ص: ٢٧، ٢٨]

ويقول سبحانه: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ويعلم القرآن المسلم أيضا عقيدة النبوة، وأن الله تعالى بحكمته ورحمته،

لم ينزل الإنسان سدى، ولم يدع خلقه هملا، بل بعث إليهم النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، كانت مهمة هؤلاء الرسل: أن يحرروا البشر من عبادة الطواغيت، وأن يبينوا لهم معالم الطريق إلى الله، ويعينوهم على تزكية أنفسهم، وكسب محبة ربهم، واتقاء عقوبته، وأن يعيشوا معهم متحابين متكافلين، ولا يظلم بعضهم بعضا، مهتدين بشرع الله سبحانه.

هذا أول ما علمه القرآن للفرد المسلم، وهو أساس البقاء كله.

القرآن يعلم الأخلاق:

القرآن الكريم: كتاب الله الذي ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢]. هذا القرآن منهاج يضع للإنسان أسس الحياة التي يعيش عليها، فهو كما يعلم العقيدة الصحيحة للمسلم: يؤدبه بالآداب السامية، ويخلقه بالأخلاق الكريمة، ويعرفه بكل صغيرة وكبيرة في حياته.. حتي إنه ليعلم المسلم كيف يمشي، ويعلمه كيف يتكلم، ويعلمه كيف يجلس، ويعلمه كيف يزور أخاه وهكذا.. كل هذا وغيره مفصلا في القرآن.

يعلمك القرآن كيف تمشي فيقول الله: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿ **وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا** ﴾ [الإسراء: ٣٧]، ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ** ﴾ [لقمان: ١٨]، كن معتدلا في مشيك لا بالسريع المتهور، ولا بالبطيء المتواني[١].

ويعلمك القرآن كيف تتكلم ﴿ **وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان: ١٩].

ويعلمك القرآن كيف تزور أخاك في بيته ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ**

---

(١) لفضيلة الشيخ خطبة كاملة يشرح فيها قوله تعالي: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾ وهي خطبة عظيمة الفائدة. راجع خطب القرضاوي (٢/٨).

تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

ويعلمك القرآن كيف تجلس في المجلس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾

[المجادلة: ١١]

القرآن يخاطب العقول والقلوب:

يعلمنا القرآن كثيرا من هذه الآداب العامة التي يتواصي الناس بها، ويعيش المجتمع علي ضوئها. والقرآن هو المصباح المنير الذي ينير الطريق إلي الله، والذي يعتمد في هذا كله علي مخاطبة القلوب، وهزّ المشاعر، وأخذ الوجدانات إلي الله..

يملأها بخشية الله، ويؤثر فيها، ويرغبها فيما عند الله، ويخوفها من عذاب الله، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

كتاب تقشعر له الأبدان، وتطمئن له القلوب، وتلين له الجلود، يؤثر في الأرواح، والقلوب والضمائر حتي في المشركين.. سمعه الوليد بن المغيرة فعاد مدهوشا، وقال: والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن.. وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلي عليه(١).

بهذا أدهش الكفار وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣، الأحقاف: ٧]، ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]، لأنه سحر قلوبهم(٢).

---

(١) ذكر القرطبي ذلك في تفسير قوله تعالي: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان..﴾ [النحل: ٩٠]، وقد أعجب الوليد بما سمع فقال قولته المشهورة. انظر: القرطبي (١٠/ ١٦٥)، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٤٣٣). وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: إسناده جيد.

(٢) للأستاذ سيد قطب رحمه الله كلام رائع في كتابه: «التصوير الفني في القرآن» تحدث فيه عن القرآن وسحره لقلوب المشركين وشغف أفئدتهم به، وقد كتب الشيخ ذلك تحت عنوان: سحر القرآن، «ومنبع السحر في القرآن» فليراجع.

القرآن يزلزل قلوب المشركين:

هذا القرآن استطاع أن يؤثّر في المشركين؛ حتي خاف زعماء الكفار علي عامتهم أن يتأثروا به، فكانوا يشوشون علي قراءته ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾(١) [فصلت: ٢٦].

وإنما دخل الداخلون في الإسلام لا بقوة السيف، ولا بكثرة العدد، ولا برهبة الجيوش، فما كان عندهم في فجر الإسلام – في العهد المكي – سيوف ولا رماح ولكن كان السلاح الوحيد الذي يغزون به: كتاب الله.. لقد سمع القرآن عمر بن الخطاب فاستسلم له، وألقي السلاح من يده، وأتي إلي النبي ﷺ يعلن إيمانه، ويشهر إسلامه، فقد هزّ القرآن فؤاده هذا عندما سمع ﴿ **طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾(٢) [طه: ١– ٨].

بهذه الآيات هزّ القرآن قلب عمر بن الخطاب فأعلن الإسلام بعد أن كان ذاهبا ليقتل نبي الإسلام، وهكذا يفعل القرآن في نفوس المشركين قبل نفوس المؤمنين، أراد الله به أن يحيي القلوب الميتة، وينعش النفوس الخاملة، ويهزّ الأفئدة الجامدة، ويأخذ بيد هذه البشرية إلي نفحات الله، إلي رياض جنة الفردوس ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

كيف نقرأ القرآن:

لا يستوي هذا وذاك.. لهذا أمرنا الله تبارك وتعالي أن نتدبر القرآن إذا قرأنا،

---

(١) ذكره القرطبي عن ابن عباس قال: قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتي لا يدري ما يقول. القرطبي: (١٥/٣٦٦).

(٢) لمعرفة المزيد عن إسلام عمر راجع السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٨٧).

ونتدبره إذا سمعنا، ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] ليسمع هذا القرآن الذين لا يعرفون القرآن إلا ألحانا وأناشيد، وليفهم هذا: « السميعة »، الذين لا يعرفونه إلا أصواتا حلوة، ولا يفهمون من معانيها شيئا[١].

علينا أن نتدبره إذا قرأنا، عملا بوصية الله لنبيه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾

[المزمل: ١-٤]

ترتيل القرآن والتخشّع في تلاوته، والتباكي عند قراءته فقد قال ﷺ: « إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا »[٢].

وقد وصف الله المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢]. ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، علي القاريء أن يقرأ بتدبر، ويسمع بتأمل وتَفَهُّمٍ، قال الدكتور إقبال (شاعر الإسلام) أوصاني أبي فقال: يا بني إذا قرأت القرآن فاقرأه وكأنما عليك أنزل.

---

(١) يحمل القرآن هنا علي من يجعل القرآن ألحانا وطربا، ولهذا عقد الشيخ فصلاً في كتابه: « كيف نتعامل مع القران العظيم؟ » أسماه: « تلاوة القرآن وسماعه »، وقد تحدث الشيخ فيه عن آداب الاستماع، وذكر من أهمها: ١- الإنصات والإصغاء. ٢- التأدب والتأثر والتجاوب. ص١٨٧ وما بعدها.

(٢) رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٧) عن سعد بن أبي وقاص، وذكره الألباني في ضعيف ابن ماجه (٢٨١) ولكن البكاء عند القراءة مشروع غير ممنوع ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وفيه: (فإذا عيناه تذرفان الدمع) متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٤٦٣)، رواه البخاري في فضائل القران (٥٠٥٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٠).

القرآن يجيب عن الأسئلة الخالدة(١):

هكذا يجب أن يقرأ القاريء، وهكذا يجب أن يسمع السامع، ولو أننا أعطينا القرآن حق القراءة ، وحق الاستماع؛ لأثّر في قلوبنا حق التأثير.

ستجد فيه جوابا عن كل سؤال يجول بنفسك، أو يسير علي لسانك.

إذا سألت نفسك ماذا كان مبدئي، وماذا ستكون نهايتي وآخرتي؟ ستجد القرآن يحدثك عن مبدأ حياتك، وعن نهاية أمرك، وعن موقفك في آخرتك. واسمع قول الله: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ من سُلالَةٍ مّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، ذلك هو مبدأك.

أما منتهاك فاسمع قول الله ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٥].

ثم ماذا لك عند الله؟ اعرض نفسك علي القرآن يجيبك ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، ﴿ **يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ * فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ [النازعات ٣٥ - ٤١].

القرآن يجيبك عن كل سؤال تسأل به نفسك.. إذا خلوت مع صاحبك وظننت أن الليل قد أرخي سدوله، وأن النجوم قد اختفت وراء السحاب، وأنك تستطيع أن ترتكب المحرمات، ولا عين تراك، ولا لسان يتحدث عنك. فارجع إلي القرآن واقرأ آياته ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٦- ١٨]. وإذا ظننت أن الحياة كل شيء فاسمع قول الله ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ** ﴾ [ق: ١٩- ٢٠].

---

(١) راجع ما كتبه الشيخ في كتابه: «العبادة في الإسلام» تحت عنوان: (الأسئلة الخالدة) صـ١١ وما بعدها.

وإذا ظننت أن الآخرة سيطول أمدها، وهيهات أن تأتي، وقلت: إن المسافة طويلة، وأن الأمد بعيد فاقرأ قول الله ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٢٠ - ٢١]. وإذا ظننت أن العمل الذي تعمله يذهب وينتهي والناس لا يعرفون، فاعلم أن الأعمى سيبصر يوم القيامة، وأن الغطاء سينكشف عن العيون، ﴿ **لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ [ق: ٢٢].

تجاوب السلف مع القرآن:

لنرجع إلي القرآن أيها الناس لنحيي به موات نفوسنا، ونتخذه دستور حياتنا، نتعلّم بعلمه، ونقتبس من سناه، ونهتدي بهداه، ونتأدب بآدابه، ونسير وفق تعاليمه، ولن يكون ذلك إلا إذا قرأنا فأحسنا القراءة، وسمعنا فأحسنا السماع، لقد كان الرجل يأتي إلي النبي ﷺ فيسمع سورة (الزلزلة) ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ فيقول: حسبي يا رسول الله.. لا أبالي لا أسمع من القرآن غيرها..

وفي رواية: أن رسول الله قال: «دعه فقد فقه». وفي رواية: أن رسول الله قرأها وعنده أعرابي، فقال الأعرابي: يا رسول الله أمثقال ذرة؟ قال: نعم فقال الأعرابي: واسوأتاه، ثم قام وهو يقولها، فقال رسول الله ﷺ: لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان.

وفي رواية أخري: فقام رجل يضع يده علي رأسه، وهو يقول: واسوأتاه. فقال النبي: أما الرجل فقد آمن[1].

هذه الآية وحدها لو عمل الناس بها، وساروا وراء هديها، لعاشوا أعزة كرماء، كان الرجل بعد هذا حينما يتصدق بالصدقة اليسيرة - بحبة العنب -

---

(١) ذكر السيوطي هذه الآثار في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (٦/ ٣٨٠ - ٣٨٢)، وانظر: كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص ٤١٢ ومابعدها. وفيه ذكر شيخنا مواقف عديدة للصحابة عند نزول القرآن، وكيف تجاوبوا معه، وهي جديرة بالتأمل.

يقول: يا عجبا كم في هذه من ذرات؟! لا يحاسب نفسه بالقنطار ولكن يحاسب نفسه بالذرة ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾.

حال المسلمين اليوم مع القرآن:

إننا لم نعد الآن نقرأ القرآن كما ينبغي.. إن القاريء يقرأ غالبا آيات الوعد، فإذا وصل إلي آيات الوعيد – التي تذكر الناس بالنار وبطش الله الجبار – فرّوا منها كأنما يريدون أن يعّدلوا علي الله، فإذ قرؤوها، قرؤوها بطريقة لا تشعر السامع أبدا أنهم يتلون آيات وعيدية مخيفة، كأنها زفير جهنم بين يديه. إنه يقرأ ﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** ﴾. فيقرؤها بطريقة تجعل السامعين يقولون: (أعد أعد) كأنهم لا يفهمون عن النار، وطعام الأثيم، وشجرة الزقوم شيئا!

هكذا صارت قراءتنا.. ولو اننا قرأناه كما ينبغي لما كان أعداؤنا يذيعونه علينا.. إن إسرائيل تذيع القرآن علينا، إن لندن تذيعه علينا، إن محطة شرق الأدني تذيعه علينا، لأنهم اطمأنوا إلي أن القرآن لا يحرك فينا ساكنا، ولا ينبه غافلا. هذا وحده الذي حمل لندن أن تقرأ مثل: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ...** ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وتقرأ ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٤١]، لأنهم عرفوا أن المسلمين أصبحوا غير المسلمين.

خصائص القرآن[1]:

يا قومنا: علينا أن نعود إلي القرآن، نتدبره ونستمع إليه. فالقرآن كتاب

---

(١) تحدث فضيلة الشيخ هنا عن ثلاث خصائص فقط من خصائص القرآن؛ حيث إن المقام مقام إيجاز، ومع أنه أفرد في الخطبة التي تليها خصائص أخري، إلا أنه – حفظه الله – قد فصّل في كتابه: «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» وعدد سبع خصائص، منها: هذه الثلاث، وزاد أربعا هي: ١– كتاب إلهي. ٢– كتاب الدين كله. ٣– كتاب الزمن كله. ٤ – كتاب الإنسانية كلها. ص١٧– ٧٠.

سماوي ليس ككتب السماء. قد فضّله الله علي كل كتاب أنزل. فضله علي توراة موسي، وإنجيل عيسي، وصحف إبراهيم، لأنه امتاز بميزات منها:

١- أنه كتاب معجز[١]:

جعل الله في آياته البيان والبلاغة، أعجز العرب وهم أصحاب الألسنة وأرباب الفصاحة أن يأتوا بأقصر سورة من مثله، وحقق عليهم الغلبة. وصدق الله العظيم ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢- وامتاز كذلك بالتيسير: فالله قد يسره للذكر والحفظ. فلن تجد كتابا سماويا كالقرآن يُتلي ويحفظ بسهولة، ويفهم منه العام والخاص، والفيلسوف والجاهل، والعالم والأمي ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [الدخان: ٥٨]، ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾[القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]

﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١]، ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴾ [يوسف: ١، القصص: ٢]، ميسر مبين واضح. ويحفظه من المسلمين عشرات الآلاف حتي من الصبيان. ولم تجد القسيسين ولا رجال الكهنوت أنفسهم يحفظون التوراة أو الإنجيل.

فالقرآن صاحب هذه الميزة الكبري. يحفظه الحافظون، ويتعبد بتلاوته القارئون والسامعون، وبذلك يوصي رسول الله فيقول: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٢] ويقول: (من قرأ القرآن وعمل به؛ أُلْبِس والده يوم القيامة تاجاً من

---

(١) ذكر شيخنا حفظه الله في كتابه: « كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ »: أن الإعجاز لا يتم ولا يتحقق التسليم به إلا إذا توافرت له شروط ثلاثة:

١ – أن يوجد التحدي به، فهو الذي يدفع إلي المعارضة من الخصم.

٢ – أن يوجد المقتضي للمعارضة من الخصوم، كالدفاع عن معتقداتهم.

٣ – أن تنتفي الموانع من المعارضة.

وقد توافرت الشروط الثلاثة في إعجاز القرآن، واقرأ إن شئت قوله تعالي ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾ [هود: ١٣]، وقوله ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** ﴾ [يونس: ٣٨]، ص ٣٨، ٣٩.

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧) عن عثمان.

نور؛ ضوءه مثل ضوء الشمس، ويُكسي والده حلتين لا يقوم لهما الدنيا، فيقولان: بما كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن)[1].

هذا في شأن الذي يقرأه؛ فما بالكم بالذي يعمل به؟ وهذا حث للناس علي أن يُحفظِّوا أبناءهم القرآن وإن كنا في زمن نخشي علي مستقبل ضياع القرآن.

٣- الميزة الثالثة: أنه محفوظ لا يعتريه تبديل ولا تغيير، ولا نقص ولا زيادة؛ لأن الذي تولي حراسته ليس بشرا من البشر؛ وإنما رب القوي والقدر. قال عز وجل ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩] لقد قرأ صبي قول الله تعالي: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ**﴾ [آل عمران: ١٤٤] فقال: (وما محمد ﷺ إلا رسول) فوكزه صبي بجانبه، وقال: من أين زدت علي القرآن؟ فالصبي نفسه يشعر بأن القرآن الكريم لا ينتقص منه ولا يزاد عليه ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ* لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢].

ليس في الدنيا كتاب سماوي لم يتغير، بل لعب رجال الدين بالكتب السماوية، وحرفوا الكلم من بعد مواضعه، فإذا بالتوراة غير التوراة، والإنجيل عبارة عن أناجيل شتي، بلغت العشرات كإنجيل يوحنا وإنجيل مرقس، وإنجيل متي وإنجيل لوقا. أما القرآن الكريم فهو باق بعين الله محفوظا ومحروسا، ﴿**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [التوبة: ٣٢].

ذلكم هو القرآن الكريم:

كمنهاج للفرد: يحيي قلبه، وينير عقله، ويشد عزمه، ويضع له الآداب، ويحل مشاكله، ويُحيي نفسه بتقوي الله.

وكدستور للدولة ومنهاج للمجتمع، وقانون للحكومة، فسنتحدث عنه في الأسبوع القادم إن شاء الله.

---

(١) رواه الحاكم عن بريدة وقال: صحيح علي شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/٥٦٨) وذكره الألباني في صحيح الترغيب (١٤٣٤).

الحض علي قراءة القرآن:

يقول النبي ﷺ: «اقرأوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه»[1]، وقال ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[2].

وقال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[3].

وقال ﷺ: «إن لله أَهْلِينَ من الناس. قالوا: من هم يا رسول الله؟ فقال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»[4].

* * *

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤) عن أبي أمامة الباهلي.

(٢) رواه الترمذي في فضائل القران (٢٩١٢) عن ابن مسعود، وقال: حديث حسن صحيح غريب، وذكره الألباني في الصحيحة (٣٣٢٧).

(٣) رواه البخاري في فضائل القران (٥٠٢٧) عن عثمان بن عفان.

(٤) رواه الحاكم في مستدركه وقال: يروي من ثلاثة أوجه، أجودها عن أنس، ووافقه الذهبي (١/٥٥٦) ورواه ابن ماجه (٢١٥) والنسائي في الكبري (٨٠٣١) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٧٨).

(٩)

القرآن الكريم دستور للدولة[١]

الحمد لله. أنعم علينا بخير كتاب أنزل، وأختصنا بأفضل نبي أرسل. محمد رسول الله ﷺ والقرآن الكريم.. نعمتان من نعم الله علينا؛ إذا قمنا بشكرهما، وأدّينا حقهما فقد ضمنا سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وإذا أعرضنا عنهما، وغفلنا عن حقهما فقد خسرنا خسرانًا مبينًا.

نحمده تعالي ونتوب إليه ونؤمن به ونتوكل عليه، ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، ورضوان الله علي آله وصحبه، ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ورضوان الله عمن دعا بدعوته، واهتدي بسنته، وسلك سبيله، وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

أما بعد فيا معشر المسلمين:

تحدثنا في الأسبوع الماضي: عن القرآن ككتاب سماوي، وأن الله تبارك وتعالي اختصه دون الكتب السماوية – دون التوراة والزبور والإنجيل وصحف إبراهيم – بخصائص لا توجد في غيره.

اختصه بأنه كتاب ميسر ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]

واختصه بأنه كتاب معجز ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨].

واختصه بأنه كتاب محفوظ من التغيير والتبديل ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، واختصه بأنه

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في يوم الجمعة: ٢٦ ربيع آخر ١٣٧٣هـ الموافق أول يناير ١٩٥٤.

كتاب مهيمن على هذه الكتب كلها، يجمع كل ما فيها: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٤٨]، ويزيد عليها ما تحتاجه الإنسانية في كل عصر وفي كل مصر، وفي كل زمان ومكان. فهي النجوم الساطعة، والمصابيح الهادية والقرآن هو الشمس المُشْرِقة، والمصباح الساطع المنير.

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفىء القنديلا

تحدثنا عن القرآن ككتاب سماوي كمنهاج للفرد: يحيي قلبه، ويضع له الآداب، ويحل مشاكله، ويحيي قلبه بتقوي الله. ونريد أن نتحدث اليوم عن القرآن كدستور يجب أن تحكم به الدولة، وأن تسير علي منهاجه كل حكومة، وأن تتبع هديه كل أمة.

القرآن كتاب إلهي:(١)

هذا القرآن دستور لم تصنعه لجنة من الناس، ولم يؤلفه جماعة من البشر، فإن أي جماعة من البشر يصدرون قانونا، ويؤلفون دستورا، لا يخلو قانونهم، ولا يخلو دستورهم، مما فيهم من عيب ونقص ﴿ **وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٢٨]

الإنسان عاجز، كليل الذهن، قليل العلم، فلابد أن يكون الدستور فيه من ضعف الإنسان ما فيه. ثم لكل جماعة هوي؛ فلن يخلو الدستور من هوي لواضعيه، ينفذون إليه وإن لم يشعروا، أما القرآن فهو دستور الله، شرع الله العزيز الحكيم، كلام الله الذي أتقن كل شيء، شريعة الذي أحسن كل شيء خلقه وكل شيء شرعه.

---

(١) هذه إحدي خصائص القرآن الكريم؛ والتي تحدث عنها فضيلة الشيخ بالتفصيل في كتابه: (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟). ومما قاله فضيلة الشيخ هناك: فهو إلهي المصدر: مائة في المائة (١٠٠٪) لفظا ومعني، أوحاه الله إلي رسوله ونبيه محمد ﷺ عن طريق (الوحي الجلي) وهو نزول (الرسول الملكي) جبريل علي (الرسول البشري) محمد، وليس عن طرق الوحي الأخري. ص ١٩ وما بعدها.

إن أفضل ما وصلت إليه الإنسانية هو المصباح الكهربائي، فأين هذا من نور الشمس الإلهي؟ أين نور الصناعة من نور الطباعة؟ إن الإنسان يصور تمثالا من حجر أو حيوان، وهل يستطيع أن يجعل فيها حياة، ويجعله يسعي ويتحرك علي قدميه، ويحس بشعور، وينطق بلسان؟ لا يستطيع أن يفعل هذا. لأنه فرق بين قدرة الإنسان وقدرة الرحمن.

وهل يستوي وحي من الله منزل وقافية فى العالمين شرود؟

ميزات القرآن:

القرآن الكريم يمتاز عن الدساتير كلها بميزات:

الميزة الأولي: بأنه دستور كامل:

وكماله من كمال منزله وشارعه. الكمال الذي لا يدركه عيب ولا تشوبه شائبة من الجهل والهوي: ولو شئنا أن نقارن بين أي قانون من قوانين القرآن، والقانون الذي وضعه الواضعون، وشرعه الشارعون، ووضعوه بأدمغتهم، فهيهات هيهات فأين الثريا من الثري؟

الميزة الثانية: أنه دستور شامل:[1]

لقد جعل لكلً مشكلة حلاً، ولكل معضلة علاجا، ووصف لكل داء دواءً، ولكل جرح «مرهما»، ولكل مرض علاجا، هو صيدلية كبري. الله مركب أدويتها، والمسيطر عليها، وصدق الله العظيم: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الإسراء: ٨٢]، شفاء للفرد، شفاء للأسرة، شفاء للمجتمع، شفاء للعالم كله ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: ٥٧] ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**﴾ [فصلت: ٤٤].

القرآن الكريم كتاب شامل ودستور عام، عالج كل مشاكل الإنسان: الإنسان

---

(١) ذكر فضيلة الشيخ في كتابه: (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) أن من خصائص القرآن: أنه كتاب الدين كله، ومما قاله الشيخ: والقرآن كذلك كتاب الدين كله، فهوعمدة الملة، وروح الوجود الإسلامي. منه تستمد العقيدة، وتؤخذ العبادة، وتلتمس الأخلاق، وتتوفر أصول التشريع والأحكام. ص ٤٩ وما بعدها.

مادة، والإنسان روحا، والإنسان عقلا، والإنسان عاطفة، الإنسان فردا والإنسان مجتمعا. فلا غرو أن يكون فيه: سياسة، واقتصاد، واجتماع، وثقافة وفكر وسلم وحرب، وروحانية، وعمل، وصلاة وجهاد، جمع فأوعي، وصدق الله العظيم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

كان سيدنا أبو بكر يقول: «والله لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله».

وقف عبد الله بن عباس ترجمان القرآن يوما أمام المرآة يصلح من هندامه، ويصفف من شعره، ويجمّل من نفسه، فقال له نافع مولي عبد الله بن عمر: أتجمل نفسك؛ والناس يرحلون إليك من أطراف البلدان ليتعلموا منك. فقال: وماذا في هذا؟ أتزين لامرأتي كما تتزين لي امرأتي، وهذا في كتاب الله! قال واين نجد هذا فى كتاب الله، قال: فى قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1] [البقرة: ٢٢٨]. هكذا كانوا يفهمون روح القرآن، ويأخذون منه كل شيء.

القرآن هو دستور شامل.. يقول بعض الناس ما للقرآن والسياسة؟ وما له وللاقتصاد؟ وما له وللمجتمع؟! ونقول لهم: إن لم تؤمنوا بهذا فاشطبوا من القرآن آيات شتي. تتعلق بالسياسة الخارجية والداخلية، فيه هداية الفرد وفيه نظام الأسرة، وفيه إرشاد المجتمع، وفيه توجيه الحكومة، لقد وضع الخطوط الرئيسية، ورسم الأهداف العامة لحياة الفرد وحياة الأمة كيف نترك هذا؟[2].

---

(١) رواه البيهقي في الكبري (٧/٢٩٥) وابن أبي شيبة في مصنفه بلفظ: إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة لأن الله يقول: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) وما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها لأن الله يقول: (وللرجال عليهن درجة).

(٢) تحدث فضيلة الشيخ عن خصيصة الشمول في كثير من كتبه ومحاضراته، وخطبه وندواته، وللمزيد من هذا راجع علي سبيل المثال ما كتبه في:

١- شمول الإسلام.
٢- الخصائص العامة للإسلام.
٣- السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها.
٤- من فقه الدولة في الإسلام.
٥- فتاوي معاصرة.

وغيرها من كتب الشيخ كثير.

هذا الكتاب وإن فيه سياسة أتراه أمرا فى الكتاب غريباً
إن كانت تؤذيكم سياسته دعو ه ونقبوا عن غيره تنقيبا
أو اعرضوه على الرقيب فربما أفتى فغادر نصفه مشطوبا
يا قوم سحقا للرقيب وأمره فكفى برب العالمين رقيبا[1]

لو اتبعناه لكنا في طليعة الأمم، ومقدمة الصفوف، إن الإنسانية لن تسعد ولن تهتدي إلا إذا اتبعت منهج الله وهداه وإذا اعرضت عنه كان مصيرها ضنك المعيشة في الدنيا، وعذاب الله فى الآخرة.

وهذا، ما قاله الله لآدم وزوجه حين خرجا من الجنة: ﴿ **اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** ﴾.

سئل أحد العلماء: إنك تقول: إنك رأيت في القرآن أمثال العرب والعجم

---

(١) هذه الأبيات للأديب الشاعر الدكتور: حسان حتحوت، ولفضيلة الشيخ أبيات رائعة يتهكم فيها علي القائلين بفصل الدين عن السياسة، أو الدين عن الدنيا، ذكرها في قصيدة (في ذكري المولد النبوي) وفيها يقول:

يا خير من ربت الأبطال بعثته ومن بنى بهمو للحق أركانا
خلفت جيلاً من الأصحاب سيرتهم تضوع بين الورى روحاً وريحانا
كانت فتوحهم براً ومرحمة كانت سياستهم عدلاً وإحسانا
لم يعرفوا الدين أورادا ومسبحة بل أشربوا الدين محرابا وميدانا
فقل لمن ظن أن الدين منفصل عن السياسة: خذ يا غرُ برهانا
هل كان أحمد يوما حلس صومعة أو كان أصحابه فى الدير رهبانا؟!
هل كان غير كتاب الله مرجعهم أو كان غير رسول الله سلطانا؟!
لا، بل مضى الدين دستورا لدولتهم وأصبح الدين للأشخاص ميزانا
يرضى النبى أبا بكر لدينهمو فيعلن الجمع: نرضاه لدنيانا

انظر: نفحات ولفحات صـ ٤٩، ٥٠.

كلها، فهل تجد في القرآن[1] (دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلي قيام الساعة)؟ فقال: نعم. في قول الله ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقوله تعالي: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨]

فقيل له: (الحجر المغصوب في الدار رهن بخرابها) فقال: نعم، في قوله تعالي ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا** ﴾ [النمل: ٥٢].

فقيل له: هل تجد معني المثل القائل: (أعطه تمرة فإن أبي فأعطه جمرة)؟ فقال: في قوله تعالي: ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾ [الزخرف: ٣٦].

فقيل: هل تجد المثل القائل: (خير الأمور الوسط)؟ قال: نعم في أربعة مواضع في البقرة: ﴿ **بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ** ﴾ [البقرة: ٦٨]، وفي الإنفاق: ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وفي وصف الله لعباده المؤمنين ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٧]، وفي أمر الله لرسوله – ﷺ – بالصلاة ﴿ **وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا** ﴾ [الإسراء: ١١٠][2].

---

(١) للإمام السيوطي رحمه الله كتاب اسمه: (التحبير في علم التفسير) وقد ذكر رحمه الله في هذا الكتاب العلوم التي تتعلق بالقرآن الكريم وعد منها اثنتين بعد المائة، جمع فيها ما سبق إليه في هذا الفن، وجاء بجديد لم يسبق إليه، وكان هذا همه في تأليف هذا الكتاب، قال رحمه الله: (فظهر لي استخراج أنواع لم أسبق إليها، وزيادات مهمات لم يستوف الكلام عليها، فجردت الهمة إلي وضع كتاب في هذا العلم أجمع فيه – إن شاء الله تعالي – شوارده، وأضم إليه فوائده، وانظم في سكله فرائده، لأكون في إيجاد هذا العلم ثاني اثنين، وواحد في جمع الشيئين) وبعد أن ذكر هذه الأنواع قال: (فهذه مائة نوع ونوعان، زوائدي فيها خمسون نوعا، وها أنا أشرع في بيانها مستعيناً بالله، ومتوكلا عليه، وحبذا ذلك اتكالاً). انظر: التحبير في علم التفسير (٨١، وما بعدها) ط وزارة الأوقاف بدولة قطر/ ط الأولي ١٩٩٥.

(٢) انظر التحبير في علم التفسير. ٥١٩– ٥٢٢.

وهكذا كان القرآن لسلفنا الصالح مرجعهم في كل أمر، وبغيتهم في كل حكم، فاتخذوه هاديا، وساروا وراءه، فأفلحوا به ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهذه هي الميزة الثانية من ميزات القرآن: أنه شامل. شمل كل ما يفتقر إليه الإنسان هداية.

إن أي دستور ينظم ناحية ويترك أخري. ينظم علاقة الفرد بالحاكم. أما علاقة الأفراد بعضهم ببعض، أو علاقة الفرد بنفسه فلا شأن له بهذا. ينظم العقوبات للمسيء، أما كيف ينظم المكافآت للمحسن؟ فلا شأن له بهذا. أما القرآن فيشمل كل هذه النواحي؛ لأنه كتاب الله الكريم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

الميزة الثالثة: أنه كتاب مقدس:

له في كل نفس قدسية، وفي كل قلب تأثير، إن أي دستور وضعيّ لا يمكن أن يؤثر في القلوب، أو يهز الأعصاب، ويبكي العيون، إلا القرآن الذى يتأثر به ﴿الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

أي دستور يؤثر في النفس هذا التأثير؟! إلا دستور سماوي تقدسه النفوس، وتعظمه القلوب، لأنه نازل من عند ربهم. إن أي إنسان يستطيع أن يدخل بالدساتير الأخري المراحيض، وقد يضعه تحت رجليه، أما القرآن فلا يمسه إلا متوضئا مغتسلا متطهرا، ولا يدخل به المراحيض، ولا يلمس ورقه وهو جنب، ولا يقرأه جنبا، بل يحترمه ويقدسه، وهذا مما يدفع الناس إلي العمل به ﴿فَلا

﴿أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الواقعة: ٧٥ - ٨٠]

الميزة الرابعة: في هذا الدستور أنه كتاب خالد:[١]

إن أناسا كثيرين منّا عاشوا عمرا طويلا، ورأوا دستورا يُوضَع وآخر يُلْغي.. وُضِع دستور في سنة ١٩٢٣م، وألغاه صدقي في سنة ١٩٣٠م، ثم أعيد مرة أخري. وهذا قد أُلْغي في عهد الثورة، وهناك لجنة تضع دستورا آخر. أما القرآن فلا يمكن أن يتغير فيه سطر بل كلمة، بل حرف، لأن حارسه وراعيه والمتكفل بحفظه ليس إنسانا من البشر، وإنما خالق الخلق ومالك الملك، ورب الأرض والسماء ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أي دستور في الدنيا يمكن أن تجتمع فيه هذه الميزات؟!

الكمال: الذي لا يلحقه نقص. **والشمول:** الذي لا يترك ناحية إلا عالجها. **والقدسية:** التي تلج كل نفس إنسان فتعظمه وتحترمه. **والخلود:** الذي يبقيه إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها. ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

موقفنا من القرآن:

هذا هو القرآن. فماذا كان موقفنا منه. لقد فرّطنا فيه أفرادا، وفرّطنا فيه أُسَرا، وفرّطنا فيه جماعات. أين هو منا؟ أين هو من حياتنا؟

القرآن كتاب كنا نحفظه فهو الآن مهدد بخطر!! لقد كانت مصر مشهورة بتحفيظ القرآن. إن الكتاتيب قد بادت، وإن المدارس التي أنشأها

---

(١) عبر فضيلة الشيخ عن هذه الميزة في كتابه: (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) بأنه كتاب للزمان كله، ومما قاله فضيلة الشيخ: (ومن خصائص القرآن، أنه كتاب الزمن كله وكتاب الإنسانية كلها، وكتاب الدين كله، وكتاب الحقيقة كلها).

ومعنيي أن القرآن كتاب الزمن كله: أنه كتاب الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل أو أجيال، ثم ينتهي أمده، أعني أن أحكام القرآن وأوامره ونواهيه ليست موقوتة بوقت ما، ثم يتوقف العمل بها ص٦٣.

(دانلوب) المستشار الإنجليزي الذي وضع مناهج وزارة المعارف هي خطة للقضاء علي القرآن. فليس في المدارس لحفظ القرآن نصيب يذكر، وهذه مشكلة خطيرة، فبعد سنوات قليلة لن نجد من يحفظ القرآن.

لابد من وجود أناس يدرسون الإسلام[1]، ويحفظون القرآن، وينطلقون يعلمون الناس الاستنجاء والصلاة وأحكام المعاملات.

إنه بعد سنوات قليلة لن تجد الأزهر. وإن مستقبل الثقافة الإسلامية مهدد بخطر عظيم.. من ذا الذي يترك ابنه حتي يحفظ القرآن، ثم يلتحق بمعهد في المنصورة أو في طنطا والمدارس كثيرة بجواره؟! وقبل أن يدخل الطالب الأزهر يكون التلميذ في السنة الثانية الإعدادية. ويتوظف قبله، ويأخذ مرتبا أحسن منه. وها نحن الآن نطلب المساواة بمن هم أقل منا[2].

إنه أمر مدبر علي حفظ القرآن وعلي دراسة الإسلام، وعلي الطائفة التي قال الله فيها: ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وإننا نتمني والله لو عاد الزمان القديم الذي كان علماء الإسلام منصورين علي الحكام، الزمان الذي كان يوقف فيه عشرات الألوف (من الأموال) علي العلماء، علي الأزهر، ليضمنوا لأبناء الدين مستقبلا كريما حتي لا تمد أيديهم إلي الحكام.

هجران تلاوة القرآن قراءة:

أين قراءة القرآن؟ لقد فقدنا حتي قراءة القرآن. ولم يعد يقرأ بالروح التي

---

(١) لاحظ الشيخ في الآونة الأخيرة اهتمام كثير من الوزارات والهيئات والمؤسسات بحفظة القرآن الكريم، وإقامة المسابقات العالمية، وقد لفت الشيخ أنظار العديد من المسؤولين عن هذه المسابقات إلي ضرورة الاهتمام أيضا بالدراسات القرآنية التي تخدم القرآن وواقع الناس.

(٢) هذه المطالب وغيرها نادي بها فضيلة الشيخ من عشرات السنين منذ أكثر من نصف قرن، وكانت البداية حين كوّن الشيخ هو ومجموعة من زملائه لجنة أطلقوا عليها: (لجنة البعث الأزهري) وهذه المجموعة آلت علي نفسها أن ترفع صرح الأزهر عاليا، أو تموت تحت أنقاضه، وقد سجّل الشيخ أهداف هذه اللجنة في كتابه: (رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد) كما أشار إليها في مذكراته، وزاد عليها وفصل فيها، ووقف وقفة متأنية مع المناهج الدراسية، انظر ابن القرية والكتاب (ج١ / ٢٢٠ - ٢٣٩).

يجب أن يُتلي أفضل كتاب بها. إننا نقرأه الآن علي أنه ألحان ومغاني، لا علي أنه أسرار ومعاني، نسمعه علي أنه صوت فلان الجميل وألحان المقريء الشهير. وإننا في مأتم من المآتم، نذهب لنستمع فلانا فإذا كان غيره أعرضنا عنه، لأنه لا تعجبنا ألحانه ومغانيه، مع أن الله وصف سامع القرآن بقوله: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة: ٨٣].

هجران العمل بالقرآن:

أين العمل بالقرآن؟ أين كتاب الله في حياتنا. إنك تمشي في الشارع فتري مظاهر لا تتمشي مع الإسلام، سر في طنطا، سر في القاهرة، سر في الإسكندرية، لاتجد فرقاً بينها وبين بلاد أوروبا. الخمارات هي الخمارات، والقمار هو القمار، والمقاهي هي المقاهي، والنساء المتبرجات المتهتكات هن النساء المتبرجات المتهتكات، والناس هم الناس، فأين القرآن فينا؟ أتظنون أنه يكفي أن لنا اتحاداً للمقرئين ورابطة للقراء. وأن في مصر عددا من الأصوات الجميلة تشنف أسماعنا. لا. لا. إننا نخشي أن يحادنا رسول الله، ويخاطبنا القرآن يوم القيامة، فماذا نقول حينما يقول رسول الله: ﴿ **يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴾ [الفرقان: ٣٠]. ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي: إنك قد أنزلتني لأُقضي في المحاكم فإذا بهم يجعلوني تلاوة في المآتم؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك قد أنزلتني لهداية الأحياء فجعلوني للقراءة علي الأموات؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك قد أنزلتني للتشريع والتوجيه فجعلوني في التسلية والترفيه؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك قد أنزلتني لأكون حرزا للإنسانية كلها من الضلال فجعلوني حرزا يعلق في صدور النساء والأطفال؟

ماذا نقول إذا قال القرآن: يا ربي إنك نزلتني لأكون سنة للرقيٍّ فجعلوني تعاويذ للرقي؟[1].

ماذا نقول إذا خاصمنا القرآن فخصمنا، وحادنا رسول الله فغلبنا، ولم نجد جوابا شافيا، فبأي لسان نتكلم، وبأي لغة نجيب.

واجبنا نحو القرآن:

يا قومنا: الرجعة الرجعة إلي كتاب الله، العودة العودة إلي دستور السماء، الذي ينظم حياة الفرد والعائلة والمجتمع والحكومة.

يا قومنا: القرآن يجب أن تستمد منه قوانين الدولة، فقد تستفتون في القريب أو البعيد في دستوركم. فإن كان قرآنيا فاقروه، وإن كان بعيدا عن القرآن فارفضوه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ - الْفَاسِقُونَ - الْكَافِرُونَ﴾ [الآيات: ٤٤، ٤٥، ٤٧ من سورة المائدة]، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

أيها المسلمون: أول واجب علينا: أن نقرأه بتدبر ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وأن نستمع إليه بتأمل وتأثر ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. وأن نتبع هديه ونعمل به في حياتنا الخاصة والعامة ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾

---

(١) لفضيلة الشيخ أبيات رائعة تتضمن هذا المعني ذكرها في ديوانه الأول في قصيدة بعنوان: (مناجاة في ليلة القدر) ومما قال هناك:

هذا الكتاب غدا في الشرق ... وأسفاً شمساً تضيء ولكن بين عميان
يحاط بالطفل حرزاً من أذى وردى ... وفيه حرز الورى من كل خسران
يتلى على ميت في جوف مقبرة ... وليس يحكم في حي بديوان
فكيف نرقي ومعراج الرقى لنا ... أمسى يجر عليه ذيل إنسان

انظر: نفحات ولفحات (ص٤٣، ٤٤).

[الأنعام: ١٥٥]. وأن نحكم به دستورا وقانونا ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾ [النساء: ١٠٥]. وأن نبلغه إلي الإنسانية كلها ليحميها من ضلالة، وينقذها من جهالة ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [إبراهيم: ١] ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ**﴾ [المائدة: ١٥- ١٦].

روي الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون بعدي فتن كقطع الليل المظلم. قلت - أي علي -: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله. فيه نبأ من قبلكم. وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل.. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغي الهدي في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، الذي لا يزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق علي كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولم تنته الجن حين سمعته حين قالوا: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ**﴾ [الجن: ١]. هو حبل الله المتين، والنور المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، ومن قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلي صراط مستقيم»(١).

وقال ﷺ: «القرآن شافع مشفع، من جعله أمامه قاده إلي روضة من رياض الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلي النار»(٢).

* * *

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦) وذكره الألباني في ضعيف الترمذي (٥٥٤).

(٢) سبق تخريجه.

(١٠)

«المحنة» سنة الله في أصحاب الدعوات[١]

الحمد لله يجزي الصادقين بصدقهم، ويعاقب المجرمين علي افترائهم.

الحمد لله القائم علي كل نفس بما كسبت، والمجازي لها بما عملت، والعالم بطوايا الصدور وإن خفيت ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٣- ١٤]. لا تخفي عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية. يؤدب من طغي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقي ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١٧٣].

أحمده سبحانه وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة من يعترف بالعبودية له، والإذعان لأمره ونهيه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ابتلي فصبر، وانتصر فشكر، فكان خير الصابرين، وأفضل الشاكرين.

ورضوان الله علي آله وأصحابه ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ورضي الله عمن دعا بدعوته، وجاهد جهاده إلي يوم الدين.

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في ٢٨ رجب ١٣٧٣هـ الموافق ٢ ابريل ١٩٥٤م، وهي أول خطبة لفضيلة الشيخ بعد أن قضي مع الإخوان في المعتقل مدة تقرب من السبعين يوما. (الاعتقال الأول في عهد الثورة).

أما بعد فيا معشر المسلمين:

رسالة إلي المرجفين:

لقد عدنا إليكم، وقد ظن كثير من الغافلين ألا نعود.. وحُق لنا أن نخاطب هؤلاء بقول الله للمنافقين: ﴿ **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا** ﴾ [الفتح: ١٢ – ١٣].

ظن هؤلاء أن الرسول الذي خرج للغزو لن يعود هو وأصحابه سالمين، ولكن الله كذبهم، وعادوا سالمين غانمين منصورين.

الابتلاءات سنة:

ظن آخرون أن لن يعود رسول الله بعد أن أخرج من مكة مطرودا مشرداً.. خرج منها خفية من قومه.. خرج منها في حلك الظلام خائفا يترقب. ولكن الله خيّب ظنون المنافقين، وحطم أحلام الكافرين، وعاد رسول الله إلي مكة فاتحا بعد أن خرج منها طريدا.

عاد إليها جهارا، وقد خرج منها خفية.

عاد إليها نهارا، وقد خرج منها ليلاً.

عاد يحطم الأصنام التي كانت حول الكعبة وهو يقول: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١].

أيها الناس: إن دولة الباطل ساعة، وإن دولة الحق إلي قيام الساعة.

إن الحق لابد أن ينتصر مهما طال به المدي، ومهما امتدت الأيام.

إن عين الله لا تنام. وإن رقابة الله لا تغفل.

أفكار مغلوطة وأفهام خاطئة:

أيها الناس: إننا نريد أن نُصَحح أفكار الناس. فإن كثيرين يظنون أن الذي ابتلي وعُذِّب فذلك دليل علي ضعف إيمانه، وانحرافه عن الحق. وكذبوا والله، فإننا لو مشينا علي هذا الفكر الضال؛ لكان الأنبياء والمرسلون كلهم ضالين ومنحرفين.

أي نبي وأي رسول عاش داعيا إلي الله، مجاهدا في سبيله، ناصرا للحق، خاذلا للباطل، ولم يمتحن؟؟ ولم يضطهد من قومة؟؟

من ثمرات المحن[1]:

إن سلسلة النبوة حلقات دامية كلها، وقد صب عليها الأذي والاضطهاد. إن لله سنة في خلقه لن تتبدل، وقانونا ثابتا لا يتحول. إن الله يربي عباده بالمحن، ويصقل جواهرهم بالابتلاء، ويصفي نفوسهم بالاضطهاد، حتي لا تعرف إلا إياه، ولا ترجع إلا إليه، ولا تعتمد إلا عليه، ولا تفزع إلي سواه، ولا تنظر إلي غيره، ولا تدعو إلا إياه، وحتي ترسل الزفرات الحارة، والدعوات الصارخة، تهز قوائم عرش الله.

قد يسخر الساخرون بالقلوب المؤمنة، وبالدعوات المظلومة. ولكنا نقول لهم:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطي ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي ... ويرسلها إذا نفذ القضاء

طريق الدعوة محفوف بالمخاطر:

أيها الناس: إن أنبياء الله جميعا قد اضطهدوا، وإن الله لم يرسل رسولا إلا وأدبه بدروس الأذي والاضطهاد والابتلاء.

---

(١) ذكر شيخنا الفاضل في كتابه (الصبر في القرآن) حكما لهذه المحن ألخصها فيما يلي:

١- تطهير الصف من أدعياء الإيمان، من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، فإبان العافية والسراء يختلط فيها الحابل بالنابل، والخبيث بالطيب، وإنما يقع التمييز بين الأصيل والدخيل بالمحن والبلاء.

٢- تربية المؤمنين، وصقل معادنهم، وتمحيص ما في قلوبهم فإنهم ينضجون بالمحن كما ينضج الطعام بالنار.

٣- زيادة رصيدهم ومقامهم عند الله، فهو يرفع درجاتهم، ويضاعف لهم حسناتهم، أو علي الأقل يكفر خطاياهم. انظر: الصبر في القرآن، ص١٨، ١٩ بتصرف.

إنك لا تستطيع أن تشرب كوبا من الشاي إلا إذا أدخلته النار فينضج، والمؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا انصهر في أفران المحن[1]، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إن نوحا عليه السلام ظل يدعو ألف سنة إلا خمسين عاما، ويقال عنه: مجنون وازدجر.

وإن إبراهيم عليه السلام قد أوذي من قومه؛ حتي ألقوه في النار.

وإن إسماعيل عليه السلام قد تعرّض للذبح.

وإن لوطا عليه السلام قد أخرجه قومه من قريتهم، أو أرادوا إخراجه، لا لشئ إلا لخُلقه الجميل، ولسانه النظيف، وقلبه الطاهر ﴿ **أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾.

وإن موسي عليه السلام من أول يوم وُلد ربّاه الله علي المحن، فألقي في اليم ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [القصص: ٧].

---

(١) لشيخنا كلام نفيس في الصبر ذكره في كتابه «الصبر في القرآن» ومما قاله في هذا الموضوع:

لقد عرف عُشاق المجد وخُطّاب المعالي، وطُلاب السيادة، أن الرفعة في الدنيا كالفوز في الآخرة، لا تنال إلا بركوب متن المشقات، وتجرع غصص الآلام، والصبر عن كثير مما يحب، وعلي كثير مما يكره، وبدون هذا لا يتم عمل، ولا يتحقق أمل، ومن تخيل غير هذا الطريق كان كالذي قال لابن سيرين: إني رأيتني في النوم أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح!! فقال له: أنت رجل كثير الأماني والأحلام، تتمني ما لايقع، وتحلم بما لا يتحقق، وفي شعر الحكم نقرأ قول أحدهم:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله ... لن تنال المجد حتي تلعق الصبر

انظر: الصبر في القرآن طبعة مكتبة وهبه، ط الثالثة ١٩٨٩م.

وإن يوسف عليه السلام منذ صغره قد لقي ما لقي، فقد ألقي في الجب، ولا ذنب له، وبيع بثمن بخس دراهم معدودة، كما تباع الشياه، ثم نراه يخدم في بيوت الأمراء كما يخدم الأرقاء. يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي هذا الرسول النسيب الحسيب، يخدم كما تخدم العبيد، ثم يتهم كما يتهم ذوو الفاحشة، ثم يسجن ويلبث في السجن بضع سنين كما يسجن المجرمون!

إن زكريا عليه السلام نشره اليهود كما تنشر الخشب.

وإن السيد الحصور يحيي ذبح كما تذبح الأنعام.

وإن عيسي عليه السلام قد تآمر عليه اليهود، لولا أن رفعه الله إليه.

وإن رسول الله ظل في مكة ثلاثة عشر عاما وهو يذوق العلقم من الجبهة المشركة، ثم يذهب إلي المدينة فيلقي من عنت المشركين ودسائس اليهود، ومكر المنافقين.

كل هذا ليزداد صفاءً ويقيناً وقرباً من ربه، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

هؤلاء هم الأنبياء فإن أردتم أن تروا غيرهم فمن ذا ترون؟

والصحابة علي دربهم سائرون:

أترون إلي عمر وقد مزقت أشلاءه يد مجوسية كافرة؟

أترون إلي عثمان وقد قتل وهو يتلو كتاب الله؟

أترون إلي عليّ وقد ضرب في شهر رمضان وهو ذاهب إلى صلاة الفجر؟

أترون إلي الحسين وقد قتل ظمآن إلي شربة الماء؟

والدعاة والمصلحون علي الطريق:

أترون إلي الدعاة من بعدهم والمصلحين؟

أترون إلي ابن تيمية وقد عاش سنين من عُمره في السجون حتي قال:

لا أجزع من سجني ولا نفيي ولا قتلي، فسجني خلوة لعبادة الله، ونفيي سياحة في سبيل الله، وقتلي شهادة في سبيل الله.

أترون إلي جمال الدين الأفغاني[1] وقد أخرج من مصر ونفي منها؛ لأنه رئيس جمعية سرية من الشباب ذوي الطيش مجتمعة علي فساد الدين والدنيا!

أترون إلي حسن البنا وقد قتل في شارع كبير من شوارع القاهرة، ليقدم رأسه هدية في عيد ميلاد ملك؟

هكذا كان أنبياؤنا المرسلون. وهكذا كان المصلحون والمجددون.. كما قال رسول الله ﷺ: إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[2].

الناس عند نزول المحن:

حظ كل إنسان من المحنة ومن المصيبة ما تحدث المحنة في نفسه: رضا يطمئن إلي غايته ومنهجه، أو سخطا فينكر عبادته ودعوته. وصدق الله العظيم: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ [الحج: ١١].

والقائل سبحانه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ**﴾ [العنكبوت: ١٠].

---

(١) الأستاذ جمال الدين الأفغاني من الشخصيات التي تضاربت فيها الأقوال، وكثر حولها اللغط، حتي تطاول عليه الكثيرون، وقد نال تلميذه محمد عبده نصيباً من هذا اللغط، والشيخ القرضاوي تعرّض في كثير من كتاباته للشيخ الإمام محمد عبده، وأستاذه جمال الدين الأفغاني، وأكد ما كان للرجلين من مآثر، واعتذر عما كان لهما من زلات، والكمال عزيز. انظر ما كتبه فضيلة الشيخ القرضاوي في كتابه (من أجل صحوة راشدة) ص ٤٢، ٤٣، ولقاءات ومحاورات ج١ / ص٧٥.

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣١) عن أنس وحسنه الألباني في الصحيحة (١٤٦).

ومن هنا لم يكن الناس عند نزول المحن سواء، وإنما هم أنواع، فمنهم:

١- قوم تحدث المحنة في نفوسهم سخطا وفزعا.

٢- وقوم تحدث المحنة في نفوسهم صبرا جميلا على قضاء الله.. أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٧].

٣- وقوم تحدث المحنة في نفوسهم الرضا بقضاء الله تبارك وتعالى، أولئك الذين يعلمون أن الله يختار لهم الخير حيثما كانوا، ويتدبرون الأثر القدسي إذ أوصي الله إلي داود فقال: « يا داود أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ».

يتدبرون الأثر القائل: (إن الله عز وجل جعل الفرح والروح في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في السخط والشك)[١].

٤- وقوم تحدث المحنة في نفوسهم أكثر من الصبر والرضا، وهو: الشكر والسرور بقضاء الله تبارك وتعالى، فيرون المحنة منحة، والنقمة نعمة، والبلية هدية[٢].. يرون فيها نصر الله كما قال عبد الله بن عمر: « ما أصبت بمصيبة

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً علي ابن مسعود (١/ ٢٢٢).

(٢) ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله في منزلة الصبر: أن الصبر في المحن يستعين العبد عليه بثلاثة أشياء، وعد منها: تهوين البلية، وذكر أن البلية تهوّن بأمرين:

الأول: أن يعد نعم الله وأياديه عنده، فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه - بالنسبة إلي أيادي الله ونعمه - كقطرة من بحر.

الثاني: تذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه، فهذا يتعلق بالماضي. وتعداد أيادي المنن: يتعلق بالحال. ويحكي عن امرأة من العابدات أنها عثرت. فانقطعت إصبعها. فضحكت. فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطع أصبعك؟ فقالت: أخاطبك علي قدر عقلك. حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها.

انظر: تهذيب مدارج السالكين ص٣٥٩، ٣٦٠.

إلا كان لله عليّ فيها ثلاث نعم. النعمة الأولي: أنها لم تكن في ديني، والنعمة الثانية: أنها لم تكن أكبر منها، والنعمة الثالثة: أنني أرجو ثواب الله عليها.

لابد من المحنة لأنها سنة الله في أصحاب الدعوات ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا، والله يقول للمؤمنين: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ويقول: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٤] ويقول: ﴿ **الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت: ١- ٣].

أيها الناس: هذه سنة الله في أصحاب الدعوات.

الدنيا دار التعب:

ونظرة أخري حتي في غير أصحاب الدعوات، في طبيعة هذه الحياة الدنيا.. إنها لا تخلو من عنت ومشقة.. ودلوني بربكم علي إنسان مرتاح النفس، هادىء الضمير، سعيد الفؤاد، ولا يكدر حياته مكدر.. دلوني عليه نكن مثله.. ليس في هذه الدنيا سعيد، لا غني ولا فقير، ولا ذو سلطان ولا خامل.. ربما كان أصحاب الجاه والسلطان أشد الناس ألما وأكثرهم مرارة وتعبا ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ [البلد: ٤].

من أول يوم ينزل فيه الإنسان من بطن أمه يجد العناء. وقد قيل لسيدنا علي: صف الدنيا: فقال: ماذا أصف من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء؟ من افتقر فيها حزن، ومن اغتني فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، وفي متشابهها العتاب.

إذا كان أهل الدنيا متعبين، وطلاب الآخرة متعبين. مادام التعب ضرورة، فلنتعب للآخرة بدلا من أن نتعب للدنيا، ولنتعب لله بدلا من أن نتعب للناس،

ولنتعب للرحمن بدلا من أن نتعب للشيطان، اجعلوا تعبكم ومعاناتكم للآخرة وللإسلام أيها الناس.

نسأل الله تبارك وتعالي أن يتقبل أعمالنا، إنه نعم المولي ونعم النصير.

يقول رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي علي الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من جابههم إلا ما أصابهم من لأواء (أذى)، حتي يأتي أمر الله»(٢).

* * *

الخطبة الثانية:

الحمد لله..

هكذا الدنيا أيها الناس.. كل إنسان معرض فيها لبلية نازلة، أو لنعمة زائلة، أو لجانحة في نفسه، أو في أهله، أو في ماله، أو فيمن يحب من أهله وعشيرته، ربما كان أشد الناس تعبا هم الذين تعدونهم سعداء، وربما كان أشد الناس سعادة هم الذين تعدونهم مغربين أو مضطهدين.

لأن المؤمن يشعر بالأمان في نفسه، والاطمئنان إلي مصيره، وإن خاف الناس من حوله ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٩]

وقديما قال إبراهيم لقومه حينما حاجوه. وناقشوه: ﴿**أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ** (أصنامكم الكبيرة) **وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ**

---

(١) رواه مسلم في الزهد (٢٩٩٩) عن صهيب.

(٢) رواه أحمد والطبراني عن أبى أمامة.

﴿أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]

لقد قالت امرأة عمر حينما قال لها: لأشقينك – لأرينك الشقاء والهوان – فقالت: لا تستطيع يا عمر أن تشقيني. فما كانت سعادتي في مال تمنعني منه، ولا في زينة في صدري ولا في أذني لتقطعها عني، وما هي في شيء من هذه الدنيا ولكني يا عمر أري سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي[1].

إننا نسعد أيها الناس بعقيدتنا..

إننا نسعد أيها الناس بدعوتنا..

إننا نسعد أيها الناس بإيماننا..

ليست سعادتنا في فخامة الدور، ولكنها في طوايا الصدور.

وليس إيماننا في البنيان والطوب، ولكن في شغاف القلوب.

فليعملوا ما شاءت لهم أهواؤهم وأغراضهم فإن القافلة تسير، وإن دين الله باق، وإن دعوة الله ماضية ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

---

(١) لسماحة الشيخ في «الملحمة النونية» شعر في هذا المعني، يقول فيه:

تالله ما الطغيان يهزم دعوة ... يوماً وفي التاريخ بر يميني
ضع في يدي القيد ألهب أضلعي ... بالسوط ضع عنقي علي السكين!
لن تستطيع حصار فكري ساعة ... أو نزع إيماني ونور يقيني!
فالنور في قلبي وقلبي في يدي ... ربى وربى ناصري ومعيني!
سأعيش معتزا بحبل عقيدتي ... وأموت مبتسما ليحيا ديني!

انظر: نفحات ولفحات ص٩١، ٩٢.

ورد أن في يوم الجمعة ساعة ، إجابة لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجيب له[1].

اللهم نسألك رحمة من عندك تجمع بها شملنا، وتلم بها شعثنا، وتقوِّم بها عوجنا، وتصلح بها فسادنا، وتهدي بها قلوبنا، وترفع بها شأننا، وتزكي بها أعمالنا..

ربنا أعنا ولا تعن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وأمكر لنا ولا تمكر علينا، واهدنا ويسر الهدي إلينا، وانصرنا علي من بغي علينا.

* * *

(١) يشير فضيلة الشيخ إلي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه الله إياه» متفق عليه كما في اللؤلؤ والمرجان (٤٩٥) رواه البخاري في الجمعة (٩٣٥) ومسلم في الجمعة (٨٥٢)، وذكر ابن القيم للعلماء في هذه الساعة أحد عشر قولاً، رجح القول بأنها بعد العصر، انظر: زاد المعاد (١ / ٣٧٦- ٣٧٨).